شذرات

في النهضة الادبية : ناصيف اليازجي وفارس الشدياق

يسرّنا ان يواصل بعض المستشرقين ابحاثهم في الادب العربي الحديث . وقد طالما اثنينا على ما نشره كراتشوفسكي في روسية ، وبروكلمان وكامبفمير في المانية ، وكيب في انكلترة من دروس في تاريخ هذا الادب ومختلف مناحيه . وها اننا نطّلع اليوم على بحث مستفيض في مظاهر نهضتنا الاولى في القرن التاسع عشر ، نشره هنري پيريس في « حوليات معهد الدروس الشرقية » في جامعة الجزائر ، خاصاً فيه بالذكر اثنين من اشهر اركان تلك النهضة ، هما الشيخ ناصيف اليازجي ، واحمد فارس الشدياق [1] . فرأينا ان نطلع القرّاء على اهم ما في البحث ، آخذين على الكاتب بعض المبالغات في الاحكام جرّه اليها اسلوب الدرس ، وقد بناه على المقابلة والتضادّ بين اديبين اتخذهما مثالَين : الاول للتقليد الجامد ، والثاني للابتكار الحيّ ، فكان ولا بدّ ان تفوته دقائق ، وتفاصيل ، وتحفّظات ، تفوت كلّ من حاول ان يطبّق على الشخصيات البشرية النابضة بتنوّع الحياة وحرّية الاختيار ، تلك المبادئ والاساليب الجبرية التي لا يستقيم تطبيقها الّا في محيط المادّة الميّتة.

يبدأ البحث بمعلومات عامّة في اسباب النهضة الشرقية من اثر حملة نابوليون الى مساعي محمد علي ، وفي سبق نصارى اللبنانيين اهلَ مصر الى الاخذ بمرافقها المتنوّعة ، وفي ميل بعض اركان النهضة الى تقليد القدماء من « علماء » العربية . وفي طليعة هؤلاء كان الشيخ ناصيف اليازجي.[2]

(١ Henri Pérès, *Les premières manifestations de la Renaissance littéraire arabe en Orient au XIX^e siècle : Nāṣif al-Yāziǧī et Fāris aš-Šidyāq ;* dans *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales d'Alger*, t. I, année 1934-1935, p.233-256.

٢) وقد خصّصنا به درساً واسعاً في « المشرق » ٣٦ [١٩٣٨] ٨٢٤-٨٤٣ ، ١٢٢ – ١٢٦ وفي « الروائع » ٢١ ؛ ونشر كراتشوفسكي مؤخّراً بحثاً وافياً في الشيخ وابنائه : *Encyclop. de l'Islam*, art. *Yāziǧī*.

وهنا يلخّص الكاتب حياة الشيخ ناصيف مبالغاً في القول ان اباه لم يهتمّ به [١] ، مخطئاً بجعله اياه مارونياً [٢] ، فهو من طائفة الروم الكاثوليك ، مصيباً بملاحظات عدة دقيقة في نزعة الشيخ التقليدية ، واخذه ، في الادب ، بالاسلوب الكتابي المحنّط لا بالاسلوب الحيّ الطبيعي ، حتى انه لم يتورّع في الكلام عن القاهرة ، ورشيد ، والاسكندرية ، ودمياط ، والصعيد ، واليمن ، ومكة ، والمدينة ، والكوفة ، والبصرة ، وبغداد ، والموصل ، وسروج ، والأنبار ، والحلّة ، وهو لم يعرف الا كفرشيما ، ودير القمر ، وبيروت ، وبعض الانحاء الجبليّة ؛ بل انه لا يرى بأساً في ان يؤلّف مقامةً يضرب فيها في مجاهل اليمامة من قلب بلاد العرب فيأتي بالوصف الناصل في القوالب الفارغة ، وهو على فرسه ، او بغلته ، يصعد مشارف لبنان الطافحة بالجمال المتنوّع الأتحاد [٣] . وما ذاك إلا ليقلّد مقلّدي الهمذاني [٤] .

من الحقّ ان الشيخ ناصيف فشل ، لانه حاول ان يحيي نوعاً ادبياً في غير عصره وبيئته ؛ ولكن من الحقّ كذلك ان هذا النوع لم يكن ليتدفّق حياةً في عهد الحريري نفسه . انه لنوعٌ زائف في اصله لم يولد إلا على ايدي صاغة الالفاظ ، وحذقة المقتشين عن شوارد الكلام واوابد التعابير . فلم يحيَ إلا مدة قصيرة بين يدي رجل نابغة كبديع الزمان ، طغت عبقريّته على الصناعة التركيبية فاستساغتها ، واعادتها فعلاً الى مقامها الثنوي . اما الحريري فلم يكن ليفرق اليازجي كثيراً في دقة الوصف وطبيعية الاسلوب . وان صحّ نقد اديب القرن التاسع عشر لانصرافه الى ذكر الاسفار الوهمية ، واستخدام اسماء المدن المتنوّعة قوافيَ سجعية ليس غير ، فلا يصحّ مدح الحريري على انه « شاهد ».

---

١) ص ٢٣٧ ٢) ص ٢٤١ ٣) ص ٢٣٨ – ٢٣٩

٤) اما ما يضيف بيريس الى هذا (ص ٢٣٨ : الحاشية ٢) من ان الشيخ يقصد ، في مقامته المذكورة ، اتحاد وطنيّه اللبنانيين « الذين يلفظون المُؤلِم بدل المعلّم والكلب بدل القلب ، ويقولون : الغلامُ زيدٍ بدل غلامُ زيد ، وكريمٌ رجلٌ بدل رجلٌ كريمٌ » فلا سند له إلا في وهم الكاتب ؛ ولا يخفى عليه ان هذه اللهجة هي لهجة الاروام من الاعاجم ، واليهم ينسب الشيخ غلامه في المقامة ، لا لهجة اللبنانيين . . .

المشاهد والمناظر التي يصفها لنا ، واضطلع بالاحداث التي ينقلها الينا ، حتى يمكننا ان نؤلف ترجمة حياته بمشاهد مأخوذة من « مقاماته »...»[1]. ولا يبعد عن المستشرق بيريس ان اسماء المدن في « مقامات » الحريري لا تمثل اكثر مما تمثله في مقامات اليازجي ... وهل عرف « شيخ مشان » صنعاء ، وحلوان ، وهمذان ، ودمياط (ولا سبب لذكرها الا تكملة سجعة الهياط والمياط) ، والمراغة ، والاسكندرية ، وسمرقند ، وتفليس ، وتنيس الخ... وهو لم يكد يخرج من مزرعته إلا الى البصرة ؛ واذا تقاذفت به الاسفار ، فالى بغداد ؟؟؟ وقد يكون قام بفريضة الحج ، على ضعف هذا الظن ... اما ان يتكلم عن كل ما يغذي به سجعاته من اسماء البلدان ، وان « يشهد صلاة المغرب ، في بعض مساجد المغرب » — وأعجب بهذه الدقة في التحديد ! — فهي الجرأة بعينها لا يعادلها إلا جرأة اليازجي . فهما صنوان ! وليقرنهما الشيخ بيريس في التقليد ، وفي الانصراف عن الحياة الطبيعية ، اذا شاء ! واما ان نقول : الحريري مبتكر ذو أسلوب حيّ ، واليازجي مقلد جافّ ، فلا !

. . .

بقي الكلام على احمد فارس الشدياق ، وقد افاض فيه المستشرق بيريس[2] ، فدفعنا الى الاختصار ، مكتفين بالاشارة الى ما في بحثه من ملاحظات دقيقة في تنقلات الشدياق واحتكاكه بالثقافات الغربية ، واثر كل ذلك في كتبه ولاسيما « الساق على الساق في ما هو الفارياق » ، وهنا يتبسّط الكاتب في درس المؤلف ونصيبه من الابتكار والطرافة . إلا انه لا يتمالك السير على أسلوبه الاساسي من المقابلة والتضادّ حتى يُقاد الى مبالغات وددنا لو شابها بشيء من التحفّظ .

ناصيف اليازجي لم يخرج من بلاده ، وهو امر واقع . واحمد فارس سافر الى فرنسة وانكلترة ، وهو امر واقع كذلك .

---

١) ص ٢٢٨ — ٢٢٩

٢) في الصفحات ٢٤٠ — ٢٥٦

ثم ناصيف اليازجي منشئ مقلد ، وهو أمر مُسلَّم به. وكذلك كون احمد فارس كاتباً مبتكراً.

واذاً فان ابتكار احمد فارس ، وطرافته ، وقريحته الفيّاضة ، واخذه باساليب الادب الحي ... كلها نتيجة رحلاته العديدة ، واحتكاكه بالشعوب المتباينة ، واطلاعه على الادب الغربي[1] ... فلم يبقَ ، والحالة هذه ، إلا التفتيش عن الكاتب ، او عن الكتّاب ، الذين أثروا في احمد فارس فجعلوا في شخصيته هذه الطرافة ! ... ويسير الشيخ يعيس بين المؤلفين ، من انكليز وفرنسويين ممن قد يرى شيئاً من الشبه بين بعض آثارهم وبعض آثار احمد فارس ... حتى يقع على رابليه ... واذا «بالساق على الساق» مَدين لكارگانتوا وپنتاگرويل[2].

يقرأ المطالع هذا البحث المتماسك الاجزاء ، المتسلسل النتائج ، فيُعجب باكثر نظرات المؤلف ، ويوافقه في البعض منها ، ولكنه لا يتمالك الا السؤال: أوَ لا يجحف الناقد كثيراً بحق «الشخصية» في درسه الكاتب ، وردّه كل ما اتصف به من طرافة وابتكار الى اطلاعه على ادب الغرب عامة ، او على ادب رابليه خاصة ؟ أوَ ليس هناك من عنصر حيوي فوق العنصر التأثري المتكتب بالاسفار والمطالعات ؟ أوَ ليس من فرق بين شخصيتي اليازجي والشدياق غير سعة اسفار الثاني وانكماش الاول في محيطه اللبناني ؟...

هذه وامثالها من التحفظات كان خليقاً بالاستاذ يعيس ان ينتبه لها ، فلا يندفع في نسبة كل ما يراه من جمال في «الساق على الساق» الى الامثلة الغربية ، حتى قول الفارياق لامرأته ، قبل سفره : «فلنعد الى الوداع !» لا يكاد يراه الباحث حتى يتذكّر قول Panurge المشهور : «*Retournons à nos moutons*»[3] . وبين المؤلفين والقولين فرق ! وكان خليقاً به ان يخفف بعض الشيء من حماسته في قدر «الساق على الساق» ؛ وهو على ما فيه من

---

١) ص ٢٥٠ ٢) ص ٢٥٢
٣) ص ٢٥٥

فيض عجيب ، وملاحظة دقيقة ، وأسلوب مبتكر ، لا يزال مفتقرًا الى كثير من شروط الفنّ ، كما لا يخفى على الناقد البصير.

بيد ان هذه النواقص لا تمنعنا ان نثني على المستشرق الفاضل ، متمنين على همته ان تمضي في دراستها العصرية ، وعلى أدبائنا ان يهتموا بدرس الشدياق درساً منظماً رصيناً يليق بعبقريته الفيّاضة ، وأسلوبه اللذيذ المستطاب !

ف. ا. ب.

بيانه مقفلة

جاءنا من حضرة صاحب التوقيع ما يلي :

وقفت في كتاب « دلائل العناية الصمدانية في ترجمة مار الياس بطرس الحويك ، البطريرك الماروني الانطاكي » بقلم الاب الفاضل الخوري ابراهيم حرفوش المرسل اللبناني ، (مطبعة المرسلين اللبنانيين ، جونية سنة ١٩٣٦) على الفقرة التالية في الصفحة ٣٩٨ :

« وقُبَيل وفاة مترجمنا عُزل الاب بولي والخوري لويس خليل عن وظيفتها ، وسُلّمت ادارة المدرسة في اواخر سنة ١٩٣١ للآباء اليسوعيين ورئيسها الحالي الاب ماترن اليسوعي ».

وقد استغربت مثل هذا الجزم الذي لا يرتكز على شيء من الحقيقة في ما يتعلق بي . فاني لم « أُعزل » قط عن وظيفتي في المدرسة الحبرية المارونية برومية ، بل انا قدّمت استقالتي غير مرة الى المجمع الشرقي المقدس ورُفضت كلّ مرة ، الى ان رفع المثلث الرحمة البطريرك الحويك طلبه الى صاحب القداسة الحبر الاعظم كي تُسلّم ادارة المدرسة الى الآباء اليسوعيين . وحينئذٍ فقط رضي المجمع الشرقي المقدس بقبول استقالتي ، « بناء على الاسباب » التي ذكرتها في كتاب الاستقالة ، كما هو مصرَّح جليًّا في رقيمه الموجّه اليّ بتاريخ ١٣ تموز من العام ١٩٣١ ، تحت الرقم ٣٠/٥٨٠ ، ومما جاء فيه :

« ان المجمع المقدس قد اثنى كثيرا على خطوتكم هذه ، وقد خطوتموها بلا اختياركم ، لاجل خير المدرسة الاعظم ، وهو يشكركم شكرًا حيًا على

ما ابديتم من العناية في القيام بواجبات وظيفتكم ».

« Le significa che ha molto apprezzato questo passo volontario fatto da V. S. per il miglior bene del Collegio stesso, e La ringrazia vivamente dell'impegno, con cui Ella ha adempiuto le mansioni del Suo ufficio ».

وفي رقم آخر موجه باللاتينية الى رؤساء الطائفة بتاريخ ٢ ت ٢ سنة ١٩٣١، تحت الرقم ١٨٤٨/٢٨، يؤكد المجمع المقدس من جديد انه انما قبل استقالتي بناء على الطاعي المتواتر، ويُعيد آيات الثناء قائلاً :

« S. hæc Congregatio... perlibenter declarat eum... durante munere Vicerectoris prædicti Collegii, bene se gessisse, atque officia sua fideliter explevisse ».

واني اسأل مجلة « المشرق » النراء نشر هذه الحقيقة دفعاً للاوهام، ولان استقالتي رافقتها ظروف خطيرة حملت المجمع المقدس على التصريح بما تقدم، تأييداً للحق والانصاف، وقضاء على بعض المحاولات.

الخوراسقف لويس خليل
المرسل البطريركي

تنبيه

وقع شيء من التصحيف وشيء من الغموض في بعض الشروح المشيرة الى رسوم « دمشق الشام » للاستاذ موناجيه فاقتضى اصلاح ذلك :

في الرسم	٨	ورد	تلة الساك	والصواب	تلة الساكه
»	٨	»	مدينة الشام	»	مادنة الشحم
»	١٦	»	قصر العدل	»	دار العدل
»	١٦	»	الجامع الكبير	»	الجوامع
»	١٧	»	من بقايا السور	»	برج من ابراج القلعة
»	١٨	»	مقابر الصوفيين	»	مقابر الصوفية
»	٢١	»	تكية السلطان سليم	»	مدرسة السلطان سليمان